﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين صنع موسى على عين الله، ومجمل العطايا والمنن الّتي أوتيها

لَمَّا خُتمت الآيةُ السَّابقة بقوله سبحانه: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، وكانت ختامًا لمظهر المِنّة الثَّانية من مِنن الله على موسى؛ جاءت هذه الآيةُ لذِكر مظهرِ المِنّة الثَّالثة بعودته لأُمّه؛ ليُربَّى في أحضانها، ولتطيب نفسُها بنجاته، ويتحقّق وعدُ الله لها ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: 7]، فكانت هذه الآية بيانًا لذلك؛ فقال تعالى: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾ الآية، فيكون ذلك مصداقًا لهذا الصّنع[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡفُلُهُۥۖ﴾: (كفل) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومنه سُمِّيَ الكِساءُ الَّذي يوضَعُ على ظَهْرِ البَعيرِ كِفْلًا؛ لأنَّهُ يَدورُ عليه ويَشْمَلُهُ[2]، والكَفيلُ: الشَّاهدُ والضَّامِنُ والرَّقيبُ على الشَّيْءِ المُراعَى لِتَحْقيقِ الغَرَضِ مِنْهُ[3]، والكافِل: القائِمُ بأَمرِ اليَتيم، المُربّي لَهُ، وهو مِنَ الكَفيل الضَّمين[4]، والمرادُ بالكفيل في الآية: الَّذي يَكْفُلُ إِنْسانًا يَعولُهُ.

2) ﴿تَقَرَّ﴾: (قرّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على الثُّبوتُ والتَّمَكُّنُ، يُقال: قرَّ الشَّيْءُ، يَقِرُّ، قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِه ولم يَتَحَوَّلْ[5]، وقيل: أصلُه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 288، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 504.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 262.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كفل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).

منَ القُرِّ، وهو البَرد، وهو يقتضي السُّكون، والحَرُّ يقتضي الحركة، يُقال: قَرَّتْ عينُه، أيْ: بَرَدَتْ فصحَّت، وقيل: بل لأنَّ للسُّرور دمعةً باردةً قارَّةً، وللحُزْنِ دَمعةً حارَّةً؛ ولذلك يُقالُ فيمن يُدْعى عليه: أسخَنَ اللّهُ عينَه[1]، وضَعَّفَ ناسٌ هذا، وقالوا: الدَّمع كلُّه حارٌّ، فمعنى (أقَرَّ اللّه عينَه) أي: سكَّن اللّهُ عينَه بالنَّظر إلى مَن يُحبّه حتَّى تقرَّ وتسكُن[2]، وهذا المعنى هو المراد في الآية، ويُقال أيضًا: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّت، وقيل لمن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عين، قال تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: 9].

3) ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾: أَصْلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمدودٌ، ونَجاةً، مَقْصورٌ، وأَنْجَيْتُ غَيْري ونجَّيْته، واستَنْجَى مِنْهُ حاجَتَهُ: تخَلَّصها، وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه، ومعنى نجَوْتُ الشّيءَ: خَلَّصته وأَلْقَيْته، والنَّجاةُ: الخَلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[3]، والنَّجْوَةُ: المكان المُرتفِعُ المنفصل بارتفاعه عمَّا حولَه، وقيل: سُمّي لكونه ناجيًا منَ السَّيْل، ونَجَّيْتُهُ: تركتُه بنَجْوةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][4]، والمقصود بالإنْجاء في الآية: خلاصُ موسى عليه السلام مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ.

4) ﴿ٱلْغَمِّ﴾: (غمّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَغْطيَةٍ وإطْباقٍ، تَقولُ: غَمَمتُ الشَّيْءَ أَغُمُّهُ، أَيْ غَطَّيْتُهُ[5]، ومنه: الغَمامُ؛ لكونه ساترًا لضوء الشَّمس[6]، والغَمُّ والغُمَّةُ: الكَرْبُ والحُزْنُ[7]، والغَمَّاءُ: الشّديدةُ من شدائدِ الدّهْرِ، ويقالُ: إنّهم لَفي غُمَّىً من أمرِهم، إذا كانوا في أمرٍ مُلْتَبِسٍ[8]، والمُرادُ بالغَمِّ في الآيةِ: الحُزْنُ، والمَعْنيُّ به ما خامَرَ موسَى مِنْ خَوْفِ الاقْتِصاصِ مِنْهُ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا بَلَغَهُ الخَبَرُ أَضْمَرَ الاقْتِصاصَ مِنْ موسَى لِلقِبطيِّ.

5) ﴿وَفَتَنَّاكَ﴾: أَصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[9]، يُقالُ: فتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أَحْرَقْتُهُ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرّ).
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 130.
(4) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمَّ).
(6) الرّاغب، المفردات: (غم).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عمم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غمم).
(9) الخليل، العين: (فتن).

بالنَّارِ؛ لِتمييزِ الجيِّدِ مِنَ الرَديءِ، ويُسَمَّى الصَّائِغُ: الفَتَّانَ، وكَذلِكَ الشَّيْطانُ[1]، والفِتنَةُ: الكُفر؛ وسَمَّوْا ذلك فِتْنَةً؛ لِأَنَّها تَزيدُ النَّاسَ تَوَغُّلًا في الكُفْرِ[2]، وتأتي بمعنى الابْتِلاءِ والامتِحانِ والاخْتِبارِ، يُقالُ: فتَنْتُهُ، أَفْتِنُهُ، فتْنًا وفُتونًا: إذا امتَحَنْتُهُ[3]، والفُتونُ كالفِتْنَةِ: وهوَ اضْطِرابُ حالِ المَرْءِ في مُدَّةٍ مِنْ حَياتِه، والمُرادُ بالفُتونِ في الآية: خَوْفُ موسَى مِنْ عِقابِ فِرْعَوْنَ وخُروجُهُ مِنَ البَلَدِ المَذْكورِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18] إلَى قَوْلِه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١﴾ [القَصَص: 20 - 21][4].

6) ﴿فَلَبِثْتَ﴾: (لبث) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، وانتظارٍ، واستبطاءٍ، قيلَ: اللَّبْثُ الاسْمُ، واللُّبْثُ - بالضَّمِّ - المَصْدَرُ[5]، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقام به مُلازمًا له، وأَلْبِثْ عن فلانٍ، أي: انْتَظِرْهُ حَتّى يُبْدِيَ انْتِظارُكَ إيَّاه خَطَأَ رَأْيِه[6]، واسْتَلْبَثَهُ، إذا اسْتَبْطَأَهُ، وهوَ استَفْعل منَ اللَّبْثِ، وهوَ الإبطاءُ والتَّأَخُّر[7]، وحقيقةُ اللُّبْثِ في الآيةِ: الاسْتِقْرارُ في المَكانِ.

7) ﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: مَدْيَن: اسمٌ أَعْجَميٌّ، كجَعْفَرٍ، وإن اشْتَقَقْتَه من العَربيَّةِ فالياءُ زائِدَةٌ، وقد يكونُ مَفْعَلًا وهو أظهَرُ، وأَهْلُ مَدْيَنَ: قَوْمُ شُعَيْبٍ، ومَدينُ: اسْمُ أَحَدِ أَبْناءِ إبراهيمَ عليه السلام، سَكَنَتْ ذُرِيَّتُه في مَواطِنَ تُسمَّى الأيكة، على شاطئِ البَحْرِ الأَحْمَرِ جَنوبَ عَقَبَةِ أَيْلَةَ، وغَلَبَ اسْمُ القَبيلَةِ على الأَرْضِ، وصارَ علمًا لِلمَكانِ، فمِنْ ثَمَّ أُضيفَ إلَيْه لفظ (أَهْلُ)[8].

8) ﴿قَدَرٍ﴾: (قدر) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كَذا، أَيْ: مَبْلَغُهُ، وكَذَلِكَ القَدَرُ[9]، وهو: تَقْديرُ الشَّيْءِ على مِقْدارٍ مُناسِبٍ لِما

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 263.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 220.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لبث).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (لبث).
(8) ياقوت، معجم البلدان: 5/ 77، والزَّبيديّ، تاج العروس: (مدن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).

يُريدُ المُقَدِّرُ بِحَيْثُ لَم يَكُنْ على سَبيلِ المُصادَفَةِ، فيَكونَ غَيْرَ مُلائِمٍ أَوْ في مُلاءَمَتِه خَلَلٌ[1]، ويأْتي بِمعنى التَّقْديرِ، وهو: بَيانُ كَمِّيَّةِ الشَّيْءِ، يُقال: قَدَرَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ، يَقْدُرُه، قَدْرًا، وقَدَّرَه، أَيْ: قاسَهُ وبَيَّنَ مِقْدارَهُ[2]، والمُرادُ بالقَدَرِ في الآيةِ: العِنايَةُ الإلَهيَّةُ بِتَدَرُّجِ أَحْوالِ موسى عليه السلام إِلَى أَنْ بَلَغَ المَوْضِعَ الَّذي كَلَّمَهُ اللّه مِنْهُ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مِنن الله على موسى عليه السلام بالحفظ والرّعاية على الدّوام

بيّنت هذه الآيةُ بعضًا مِن مظاهرِ العنايةِ والحفظِ لموسى عليه السلام؛ لتذكيره بها، فاللّهُ يقول له: اذكر حينَ كانت أختُك تمشي لِتتَّبِعَك، حتّى وجدَتْكَ في أيدي آلِ فِرعَونَ، يَطلُبونَ لكَ مُرضِعًا، فتَقولُ لهم بلسان النَّاصح: هل أدلُّكم على من يَضُمُّ هذا الطِّفلَ إليه، ويقومُ بمَصالحِه وخِدمتِه، فيُرضِعُه ويُرَبّيه ويحفَظُه؟ فيقولون لها: هاتِها، وعند ذلك رَدَدْناكَ إلى أُمِّك بعدَما صِرْتَ في يدِ فِرعَونَ؛ كي تطيبَ نَفسُها بسَلامتِك، ولا تحزَنَ على فقْدِك، ومَنَنَّا عليكَ عندما قتَلْتَ الرَّجُلَ القِبطيَّ خطأً، فنجَّيناك مِنَ الغَمِّ، واختَبرناك اختبارًا بإيقاعِك في المِحنِ، وتخليصِكَ منها، فخرَجْتَ خائفًا إلى أهلِ (مَدْينَ)، فمَكَثْتَ سِنينَ فيهم، ثمّ حَضَرتَ الآن - يا موسى - إلى الوادِ المُقَدَّسِ في الوقتِ المُحدَّدِ الّذي قَدَّرتُه، وأردتُ فيه منْحَكَ النُّبوَّةَ، وتكليفَكَ بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى فِرعَونَ، بلا تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الظّرفيّة في لفظ: ﴿إِذْ﴾:

بيانُ وقتِ هذا الاصطناع، وأهميّةُ الاصطناعِ الإلَهيّ الحكيم

دلّتِ الظّرفيّةُ هنا على وقت هذا الاصطناع، وتلك الرّعايةِ الخاصّةِ لموسى عليه السلام، حيثُ قال: ﴿إِذْ﴾، أي: حين كانت ﴿تَمْشِيٓ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 222.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قدر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 71، والقرطبيّ، جامع البيان: 11/ 198، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 293، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 504.

﴿أُخْتُكَ﴾، أي: في الموضع الّذي وضعوكَ فيه لينظروا لكَ مرضعة[1]، وكونه ظرفًا ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ أولى؛ لأنّ تقييد التّربية بزمان مشي أُختِه صحيح؛ لأنّ التّربية إنّما وقعت زمانَ مَشي أُختِه، ورَدّه إلى أُمّه[2].

تعدّد العاملِ في إعراب ﴿إِذْ﴾، هو ثراءٌ للمعنى:

ظرفُ الزّمان ذو أثـرٍ في ترسية المعنى وتجليته

تعدّد العامل في إعراب ﴿إِذْ﴾، فقال ابنُ عطيّة: فعلٌ مضمر تقديرُه: (ومننا إذ)[3]، وقال الزّمخشريّ: "العامل في ﴿إِذْ﴾: ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ أو ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾"[4]، والمعنى على الأوّل: وألقيتُ عليك محبّةً منّي وقتَ مشي أختِكَ، وعلى الثّاني: لتُربّى ويُحْسَنَ إليكَ في هذا الوقت، وكونه ظرفًا ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ أولى؛ لأنّ تقييد التّربية بزمان مشي أختِه صحيح؛ لأنّ التّربيّة إنّما وقعت زمانَ مشي أُخته وردّه إلى أُمّه، بخلاف إلقاء المحبّة عليه، فإنّه وقع قبلَ ذلك من أوّل ما التقطه فرعونُ، فلا وجهَ لكونه ظرفًا لـ ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ إلّا باعتبار الاتّساع في زمان المَشي[5].

سِرّ التّعبير بالفعل ﴿تَمْشِيَ﴾ دون غيره:

المـشي يُحقّق الـغـرضَ المقصود، مِن تتبّع أثرِ موسى الموجود

عبَّر القرآنُ الكريم بالمشي في قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيَ﴾، دون غيره كالسّعي؛ للدّلالة على دقّة المتابعةِ لأمر أخيها موسى ﷺ، فقد مشت دون إسراعٍ مراقِبةً ومتابِعةً لسير التَّابوت، حتّى التقاطِه مِن قِبَل آلِ فرعون، ثمّ تداوُلِهم في أمر المُرضعة ... إلخ، ولم يُعبِّر بالسَّعْي؛ لأنّ السّعي هو المشي السّريع[6]، ويدلّ على قوّة المضيّ وسرعة الجريان، وهو لا يساعد في هذه الحال على دقّة المراقبة والمتابعة المقصودة منها لأخيها، بل ويَلْفِتُ الانتباه إليها، فيُفْتَضَحُ أمرُها.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 288.

(2) شيخ زاده، حاشية زاده: 5/ 616.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 45.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 64.

(5) شيخ زاده، حاشية زاده: 5/ 616، مع ملاحظة: أنّه يكتفى بهذا التّعدّد في العامل الإعرابيّ دون غيره، لوجود أثر له في المعنى، ولا داعي لذكر بقيّة الأقوال النّحويّة.

(6) الرّاغب، المفردات: (سعى).

دلالة التّعبير بالمضارع دون الماضي:

استـمـرار أُخت مـــــوسى في متابعة أثره، مع استحضار تلك الصّورة

دلّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾ على استمرار أُخت موسى ﷺ في مشيها، ومتابعتِها لأخيها، حتّى استقرارِه في بيت فرعون، وفيه - أيضًا - استحضارُ صورةِ الحَدَث، وهو المشيُ أمامَ عيني موسى ﷺ، حين حدَّثه ربّه به، ليرى مكانَ النّعمةِ منه[1].

سِرّ إسناد المشي إلى أخته:

الأخذ بالأسباب جزءٌ أساسٌ مِن أخـبـار مـوسى ﷺ

أسند القرآنُ الكريم المشيَ إلى أُخت موسى ﷺ، في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾؛ لإعلام موسى ﷺ وتذكيره بالدّور الّذي قامت به أُخته؛ حبًّا في حياته، وحرصًا على نجاته، ولبيان طاعة الأُخت لأُمّه، حيثُ قالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: 11]؛ أي: تتبَّعي أثرَه، فحَقَّقت ذلك بالمَشي لمعرفة أخباره.

دلالة التّعبير بالأُخوّة في لفظ: ﴿أُخْتُكَ﴾:

علاقة الأُخـوّة دافعٌ من دوافع الحرص والرّعاية والشّفقة

دلّ التّعبير بالأُخوّة في قوله: ﴿أُخْتُكَ﴾، على الإشعار بالحرص والرّعاية، فذلك من مقتضيات الأُخوّة، إضافةً إلى ما تتميّز به الأُخت - انطلاقًا مِن طبعها كأنثى - من رقّةٍ وشفقةٍ على أخيها.

دلالةُ إبهامِ اسمِ الأُخت في السّياق:

وصْـفُ الأُخـوّة أبلغ؛ لما يحمله مـــن مـعـاني الأُلفة والحنان

أبهم القرآنُ الكريم تعيينَ اسمِ أُختِ موسى ﷺ؛ اتّساقًا مع منهاج القرآن في التّعامل مع أسماء الأعيان، إذ إنّه لا يعتني بتعيينها حالةَ أنّه لا يترتّب على تعيينها فائدةٌ، وبحيثُ لا يعوق عدمُ التّعيين عن حصول الهدف الرّئيس الّذي تُساق له القصّة أو الحدّث، واستلهام العبرة منه، كما أنّ في إيثار ذكرِها بالوصف دونَ تعيينها بالاسم، لما في الوصف من معاني الأُلفةِ والحنانِ وحُسنِ الرّعاية، ولو عيَّنها باسمها لخلا اللّفظ من هذه الإيحاءات[2].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أُخْتُكَ﴾:

الأُخـــتُ عـزوةٌ لأخيها وسنَدٌ، وهي هنا حمايةٌ ومَدَدٌ

الإضافة في قوله: ﴿أُخْتُكَ﴾ فائدتها التّخصيص، فهي أُخته حقيقةً في النّسب لا مجازًا، وفي هذا تعظيمٌ لدور أُخوّة النّسب، وفيه إشارةٌ إلى فطنة وذَكاء أُختِه في التّعامل معَ الحَدَث، فرغم قرابةِ النّسب لم يظهر أمرُها أمامَ آلِ فرعون.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَتَقُولُ﴾:

إذا أراد اللهُ أمرًا، قيّض له الأسبابَ المُفضيَة إليه

دلّ التّعبيرُ بالفاء على أنّها لمَّا رأتهم في حيرةٍ من أمر امتناعِ موسى عنِ الرّضاع من كلّ المراضع؛ سارعت على الفور بطرح اقتراحها، فعرضت عليهم مساعدتَها لهم في حلّ هذه المعضلة، وفيها معنى السّببيّة على أنّ هذا القول مسبّبٌ[1] عنِ الحالة الّتي أصبح عليها أخوها من عدم الإرضاع، ثمّ ما سمعته من حوار آلِ فرعون، في حيرتهم من أمره، وسعيهم إلى حَلٍّ لهذه المشكلة.

دلالة التّعبيرِ بالمضارع ﴿فَتَقُولُ﴾:

مضمون حوار أُخت موسى، مع آل فرعون أو حاشيته

دلّ التّعبير بالمضارع ﴿فَتَقُولُ﴾ على مراجعةٍ وحوارٍ دارَ بينَها وبين آلِ فرعون في هذا الشّأن، فظهر من خلاله ثباتُها وحُسْنُ منطقِها، في إقناعهم بما تُريد، وقيل: عبَّر به لحكاية الحال الماضية[2].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾:

لفت الانتباه لعرض الاقتراح، بعباراتٍ فصاح

الاستفهام هنا على حقيقته، دالٌّ على العَرْض[3]، فهي تعرض عليهم مقترحَها ومساعدتَها لهم في توفير مُرضعٍ للصّبي، لديها منَ الخِبرة في إرضاع الأطفال ما يُساعِد الصّبي على تجاوز عقبة الإباء والامتناع عنِ الإرضاع، وهي لا تملك إلّا هذا العرض حتّى لا ينكشفَ أمرُها.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 348.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 219، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.

سِرّ إيثار ﴿هَلْ﴾ دون غيرها في السّياق:

الاستفهام هنا تقرير، ترجَم المشاعرَ، وأفصحَ عنِ المراد

أوثِرَ الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ دون غيرها من أدوات الاستفهام، في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾؛ لأنّ الاستفهام هنا للتّقرير، إذ لا معنى لسؤال الشّخص عن فعل نفسِه، واختيارُ ﴿هَلْ﴾ هنا؛ لأنّ المقامَ مقامُ التّصديق، ولأنّ ﴿هَلْ﴾ تحمل "ترجمةً عمَّا في نفسها من شِدّة الرّغبة في قَبول عرضِها؛ لأنّ فيه إنقاذًا لأخيها منَ العناء ومشقّة الجوع، ولأنّ فيه تطييبًا لنفس أُمّها وإثلاجًا لصدرها"[1].

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾:

الإشعارُ بوثاقة المعرفة، وانتفاءِ الغرض الخاصّ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ دون (أخبركم)؛ للدّلالة على دِقّة معرفتِها، فهي تعرف هذه المُرضعَ معرفةً وثيقةً، وليس عن طريق السّماع والإخبار، كما قد يوحي به لفظُ الإخبار، فأنتَ تقول: "أَخْبَرْتُ: أعلمتُ بما حصل لي منَ الخبر"[2]، وأيضًا لما يحملُه لفظ ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ من معنى الإخلاص في العرض، وانتفاءِ الغَرَض الخاصّ؛ كي لا تُفهَم خصوصيّةُ العلاقةِ الّتي تربطها بموسى عليه السلام، أو بالأُمّ المُرضع، ولذا عبَّرت بما يدلّ على معرفتها الوثيقة بها، دون أن تُظْهرَ علاقتَها بها، فقالت كما جاء في سورة القصص: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ [القصص: 12].

دلالة التّعبير بالجمع في قوله: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾:

الجمع مفيدٌ دلالةَ كونِه للتّعظيم، أو كونِه على الحقيقة

يدلّ التّعبيرُ بالجمع في قوله: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ على التّعظيم؛ لكونها تُخاطب فرعونَ أو بعضَ آلِه، أو أن يكون الجمعُ على حقيقته، كأن تكون قدِ اطَّلعت على الخبر منَ الحاشية والخَدَم، فدارَ بينَها وبينَهم حوارٌ، فعرضَت عليهم ذلك العرضَ، وفيه إشارةٌ إلى أنّ أمر موسى

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 348، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 304.
(2) الرّاغب، المفردات: (خبر).

كان شائعًا في القصر، فلم يقف عند فرعون وامرأتِه، بل تعدَّاهما إلى الحاشية؛ لذلك كان التّعبير بالجمع.

دلالة تعدية الفعل ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

الدّليل متمكّنٌ من معرفته بالشّيء الذي يدلّ عليه

تعدَّى الفعل ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ إلى مفعوله الثّاني بـ ﴿عَلَىٰ﴾، وهو أسلوب القرآن المُتّبع في آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 14]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ [سبأ: 7]، وكذلك تذكر الدّواوين اللّغويّة[1]؛ لأنّه لمَّا كان مَن يدلّ أحدًا على شيء، كان ذلك دليلًا على تمكُّنه منَ المعرفة أو ادّعائها؛ فناسبَ ذلك تعدّيه بـ ﴿عَلَىٰ﴾، الّتي تدلّ على الاستعلاء والتّمكّن.

سِرّ التّعبير بـ ﴿مَن﴾ الموصولة في السّياق:

التّعبير بـ (مَن) يدلّ على عموم أهل البيت دونَ تخصيص

أوثِر التّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَن يَكْفُلُهُۥ﴾، دون (الّذي) أو (الّتي)؛ لدلالة ﴿مَن﴾ على العاقل المُعيَّن مطلقًا، مذكّرًا ومؤنّثًا، بخلاف (الّذي) الخاصّ بالعاقل المُذكّر، ودلالةِ (الّتي) الخاصّة بالمُفرد المُؤنّث؛ لدفع توهُّم معرفةِ أُختِه بأُمّ موسى، فهي توحي للسّامع بذلك، ولو كان التّعبير بـ (الّتي) لأفهمَ الدّلالةَ على تخصيص شخصٍ معيّنٍ، وهذا غيرُ مرادٍ في هذا التّوقيت.

دلالة قوله: ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾ في القصص:

وضع كلّ عبارة في موضعها، دليلٌ على دقّة الاستعمال

دلّ التّعبير بلفظ ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿*وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ [القصص: 12] على أصالة معدن هذا البيت ونفاسته، الّتي توجِب اتّصافَه بكريم الأخلاق وعظيم الصّفات، ولذلك لم تقل أُخته: (هَلْ أَدُلُّكُم على مُرْضِعٍ)؛ لأنّ ذلك يوحي بالاستئجار، كما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دلل).

هو الشَّائع في عادات النَّاس في مثل هذا الموقف، وهذا غير مراد؛ لأنّ الأنبياء يخرجون مِن أزكى البيوت وأرقاها، وممَّا يُؤكّد هذا المعنى استعمالُ القرآنِ لوصف (أهل البيت)، مع سيّدنا إبراهيم عليه السلام وزوجه، بقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: 73]، ومع رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33].

دلالة التّعبير بالكفالة دون الرّضاعة:

الكفالة أعمّ منَ الرّضاعة، وأشملُ لحقوق الرّضيع

في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ عبَّر بالكفالة دونَ الرّضاعة؛ لأنّ الرّضاعة جزءٌ منَ الكفالة، وذلك أنّ شأن المرضع أن تأخذ الرّضيع في بيتها، وتتكفَّلَ بكلّ شؤونه، وليس فقط الرّضاعة، وإن كانت هي السّبب الرّئيس، وفي التّعبير بها إشارةٌ إلى أنّ موسى عليه السلام أتمّ رضاعَه من أُمّه في بيتها وليس في قصر فرعون، كما هي عادة النّساء المرضعات، وفي هذا تحقيقٌ لوعد الله تعالى لأمّ موسى، بقوله في سورة القصص: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7]؛ فلو قالت أختُه: (هل أدلّكم على أهل بيت يُرضعونه لكم) لم يتحقّق هذا الوعد بردّ موسى إلى أمّه؛ لذلك كان التّعبير بالكفالة معجزًا في تحقيق مراد الله ﷻ.

سِرّ التّعبير بياء التّذكير في السّياق:

الكفالة تحتاج إلى مزيد جهدٍ للوفاء بها، ورعايةِ متطلّباتها

في قوله تعالى: ﴿مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ عبَّر بياء التّذكير دون التّأنيث؛ لأنّ الكفالة تكون من أهلِ البيتِ كافّة بمَن فيهم رجلُ البيت الّذي هو الأبُ مِنَ الرّضاع، وإن كان الإرضاع خاصًّا بالمرأة المُرضع، وفيه إشارةٌ إلى إعلانها القدرةَ على القيام بحقّ الكفالة كما ينبغي؛ لأنّه مبعوثُ آلِ فرعون في ذلك التّوقيت، والتّذكير هو المناسب في هذه الحالة؛ لأنّه أقوى منَ التّأنيث، وفيه إيهامٌ آخَرُ عليهم؛ حتّى لا يعلمَ بوجود صلةِ قرابةٍ بينَه وبينَ المرضعة.

دلالة المضارع في ﴿يَكۡفُلُهُۥ﴾:

عبّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَكۡفُلُهُۥ﴾؛ للدّلالة على استمرار كفالته، والاهتمام بشؤونه، والإعلان عن استحضار القَدْرَة وتجدّدِها، مع طول زمن الكفالة حتّى يطمئنّ آلُ فرعون على ذلك.

بيان أنّ العبارة مستوفيةٌ لمعنى الكفالة حسًّا ومعنًى

دلالة الإضمار في قوله: ﴿مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾:

دلّ إضمار المفعول في قوله تعالى: ﴿مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ دون الإظهار، على الإيغال في التّمويه بأنّها لا تعرفه، فلم تقل: (يكفل موسى)، وإنّما هي مُجرّد ناصحٍ محبّ، يقدّم النّصحَ بإخلاصٍ للمَلك وآلِه، بقطع النّظر عمّن يكون هذا الرّضيع.

الإيغال في التّمويه، لكي لا ينكشفَ أنّ الفتاة تعرفُه من قَبْلُ

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فصيحةٌ مُعْرِبةٌ عن محذوفٍ قبلَها، يُعطَف عليه ما بعدها، أي: فقالوا دُلّينا عليها، فجاءت بأمّكَ ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ﴾ إليها[1]، ويجوز أن تكون الفاء سببيّة، أي: فتسبّب عن قولها هذا، رجوعُك إلى أُمّك[2].

الإفصاح عن كلامٍ محذوفٍ، من بلاغة الإيجاز

دلالة التّعبير بلفظ (الرّجوع) دون (الرّدّ):

عبّر بالرّجوع دون الرّد؛ لأنّ الرّجوع في اللّغة: ردّ الشّيء إلى أوّل حاله، يعني: إعادة الشّيء إلى ما كان عليه، أمّا الرّدّ فهو صرف الشّيء عن وجهه، ولمّا كانا كذلك، تضمّن الرّجوعُ الإعادةَ مطلقًا بدون تقييد، وأمّا الرّدُّ فتضمّن الإعادةَ، لكن على كراهةٍ له؛ لما فيه من معنى الصّرف والتّغيير، وهذا واضحٌ من خلال استعمال القرآن الكريم لهما، ومن ذلك ما ورد في قصّة موسى عليه السلام في سورة طه، بقوله: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ﴾، وفي سورة القصص: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾ [القصص: 13]، وعلّة ذلك: أنّ مقام سورة طه ثناءُ الله على نبيّه موسى وتكريمه،

امتنانُ الله تعالى على موسى عليه السلام، متنوّعٌ وغزير

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 16.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 19.

يؤكّد ذلك تقدُّمُ، قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، فكان التّعبيرُ بالرّجوع هو الأوفق لهذا السّياق؛ أمَّا موضع القصص الّذي ورد فيه استعمالُ الرّدّ في قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ [القصص: 13]؛ فعِلَّةُ ذلك: أنّ سياق سورة القصص يغلب عليه جوّ الخوف على نبيّ الله موسى من بطش فرعون، وصوّر القرآنُ ذلك بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]؛ لذلك ناسب التّعبير هنا بالرّدّ في سورة القصص[1].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾:

عبَّر بالماضي في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾؛ لإبراز المِنّة على موسى عليه السلام، بتحقيقها، ولتذكيره بها، وأنّ ما امتنّ الله به على موسى كليمه، وقع فعلًا بلا ريب.

دلالة نون العَظَمة في قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾:

عبَّر بنون العَظَمة في قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾؛ لبيان أنّ أمرَ إنجاءِ موسى عليه السلام، وإعادته مُعَزَّزًا مُكَرّمًا إلى أُمّه لِتَكْفُلَهُ وتُرْضِعَهُ، ولِيَنشأَ بينَ أهله، إنّما كان بتقدير الله العظيم وتدبيره، ولا يمكن لحيَل البشر أن تبلغ شأوَه، مهما كانت حِدّة الذّكاء والدّهاء، وفيه إبطالٌ لدعوى فرعونَ الأُلوهيّة؛ لعجزه أمامَ أمرِ موسى عليه السلام في تربيته وكفالته.

تدبير الله لا تمنعُه حيلُ البشر

دلالة كاف الخطاب، في قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾:

التّعبير بكاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾، جارٍ على عهد ما سبق من توجيه الخطاب لموسى عليه السلام؛ تعديدًا لنِعَم الله، وتذكيرًا له بها، ليتهيّأَ لما هو آتٍ، من تَحَمُّلِ أعباءِ الرّسالة، وهو مطمئنٌّ إلى معيّة الله الّتي كانت تصحبُه منذُ نشأتِه، ثمّ هي

تهيئة الله لموسى كليمِه، لما هو آتٍ من تحمّل أعباء الرّسالة

(1) الدوري، دقائق الفروق اللّغوية، ص: 168.

مستمرّةٌ معه إلى أن يقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا، وفيها من الإيناس لموسى ﷺ ما فيها؛ لكونه في محلّ الخطاب من ربّه.

دلالة تعدّي فعلِ الرّجوع بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ دون اللّام:

بيان أنّ الرّجوع هو العود إلى ما كان منه البَدءُ

الفعل (رجع) يتعدّى بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾، حيثُ المرادُ به الوصولُ إلى غايةٍ كان البدء منها، فالرُّجوعُ: هو "العود إلى ما كان منه البدء"[1]، ولهذا يتعدّى بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾؛ دلالةً على هذا العود، وبلوغ المراد.

سِرّ إسناد الرّجوع إلى أمّ موسى في السّياق:

نعمة الإرجاع مشتركة بين موسى ﷺ، وأُمّه الكريمة

في إسناد الرّجوع إلى أمِّ موسى في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ تمهيدٌ لما ذكرَهُ بَعْدُ، وهو قوله تعالى: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، فهي شريكةٌ لابنها موسى في هذه النّعمة، فهو رجع إلى دِفء أُمّه، وهي رجعَ إليها وليدُها، الّذي كان قد فارقها، وفيه إشارةٌ إلى الحديث عن نهاية مرحلة الرّضاع، والتّهيئة لمرحلةٍ جديدةٍ في حياة موسى ﷺ، وهذا من نِعَم الله على موسى وعلى أُمّه، حيثُ لبّى ذلك التّعبيرُ رغبة أُمّه في ضمّها إليه، وضمنت لموسى التّربيّةَ الصّالحة.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾:

إبراز جليل النّعم على موسى ﷺ وأُمّه

الإضافة في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ هي إضافة تخصيص، وفيها من دلالات النّعم الكثيرُ والكثير؛ فأن يُنجيَه من براثن عدوّه فرعون، ويحيلَ عداوتَه إلى حُبٍّ وإعزاز، وأن يُبرّدَ فؤادَ أُمِّه بإرجاعه إليها، غيرَ خائفٍ ولا مَخوفٍ عليه، بل عزيزًا مُكرَّمًا، فهذا كلّه لا يكون إلَّا بتقدير الله، وجليلِ إنعامِه على موسى ﷺ وأُمِّه المؤمنة الواثقة بالله سبحانه.

دلالة التّعبير بـ ﴿كَىْ﴾ دون اللّام في السّياق:

(كي) تُستعمَل للغرض المؤكّد، و(اللّام) تُستعمَل له ولغيره

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿كَىْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، دونَ اللّام لوجود فرقٍ بينهما؛ فالظّاهرُ أنّ (كي) تُستعمَل

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

للغرض المُؤكّد والمطلوبِ الأوّل، بخلاف اللّام، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: 13]، فقد جعل التّعليل الأول بـ ﴿كَىْ﴾ [القصص: 13] في قوله: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: 13]، والثّاني باللّام: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: 13]؛ وذلك لأنّ ردّ موسى لأُمّه هو المطلوب الأوّل، والمقصودُ الّذي تُلِحُّ عليه الأمّ؛ بدليل الاقتصار عليه في آية طه، قال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، أمَّا جَعْلُه نبيًّا مُرسلًا، وهو ما يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: 13]، فهو غرضٌ بعيدٌ، ناسبَ معه التّعبيرُ باللّام؛ بخلاف المطلب الأوّل فكان بـ ﴿كَىْ﴾ [القصص: 13]؛ لأنّ الأمّ متحرِّقةٌ لردّ ابنها الرّضيع إليها، وهذا غرضُ كلّ أمٍّ سُلِبَ منها ابنها، بل هو مطلوبُ للأُمَّات منَ الحيوان، ولذا علّلها في الموطنين، بالحرف (كي)، ولم يعلّلها باللّام[1].

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، ودلالته:

دلالة قرّة العين، على الرّضا والفرح والسّرور

أسند التّعبيرُ القرآنيّ القرّ إلى العين في قوله تعالى: ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾؛ جريًا على عادات العرب، ويُكنّى به عنِ السّرور وبلوغ الأماني، وقد شاعت هذه الكلمة على ألسنة الخاصّة والعامّة، يقال: "أَقَرَّ اللّه عَيْنَكَ، أَي: بَلَّغَك أُمنيَّتَكَ، حَتَّى تَرْضَى نَفْسُك، وتَسْكُنَ عَيْنُك، فلا تَسْتَشْرِفَ إلى غَيْرِه"[2].

أمَّا دلالة هذا التّركيب فقيل: أصله منَ القُرِّ، أي: البرد، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بردت فصحّت، وقيل: بل لأنّ للسّرور دمعةً باردة قارَّةً، وللحُزْن دمعةٌ حارّة، ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن اللّهُ عينَه، وقيل: هو منَ القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللّهُ ما تسكن به

(1) السَّامرَّائي، معاني النَّحو: 3/ 358.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قرر).

عينُه، فلا يطمح إلى غيره[1]، والمراد عين أمّ موسى، وهو دالٌّ على كثرة بكائها على وليدها، الّذي يرجّح أنّه قد أعلَّ عينيها.

دلالة تقديم ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ على انتفاء الحزن:

مناسبة كون قرّة العين علّةً للإرجاع ابتداء

قدَّم التّعبير القرآنيّ قُرَّةَ العَيْنِ على انْتِفاءِ الحُزْنِ، في قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، مَعَ أَنَّها أَخَصُّ، فيُغْني ذِكْرُها عَنْ ذِكْرِ انْتِفاءِ الحُزْنِ؛ لأنّه روعيَ فيه مُناسَبَةُ تَعْقيبِ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾، بِما فيه مِنَ الحِكْمَةِ[2]، وممَّا يذكر - كذلك - في سِرّ تقديم قرّة العين على نفي الحزن، مع أنّ زوال الحزن مقدّمٌ على السّرور؛ أنّه متى حصل السّرور، وجبَ زوالُ الغمّ لا محالة، وأجاب على ذلك الفخر الرَّازيّ، بقوله: "المراد: تقرّ عينها بسبب وصولك إليها، ويزول عنها الحزنُ بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنك"[3]، وقال ابن عرفة: "قدّم قرور العين؛ لأنّه من باب جلب المُلائم على نفي الحزن؛ لأنّه من باب رفع المُؤلم"[4].

دلالة عطف نفي الحزن، على قرّة العين:

جمع المنفيّ والمثبت بالعطف؛ لتوزيع المنّة

عَطْفُ نَفْيِ الحُزْنِ على قُرَّةِ العَيْنِ في قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾؛ لِتَوْزيعِ المِنَّة، لِأَنَّ قُرَّةَ عَيْنِها إنما كان بِرُجوعِه إِلَيْها، وانْتِفاءَ حُزنِها تمّ بتحقُّق سَلامَتِه مِنَ الهَلاكِ ومِنَ الغَرَقِ، وبِوُصولِه إلى أَحْسَنِ مَأْوًى[5].

سِرّ التّعبير بنفي الحزن، دون نفي الخوف:

الحزنُ يكون على ما فات، والخوفُ يكون ممَّا هو آت

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بنفي الحزن في قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، دون نفي الخوف؛ لأنّ الحزن يكون على ما فات، والخوفَ يكون

(1) الرَّاغب، المفردات: (قر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 219.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 11/ 326.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 144.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 219.

ممَّا هو آت، ولذا كان الملائمُ هنا نفيَ الحزنِ عنها؛ وهو الألم الّذي قاسته بفراق ابنها، وما التبس بذلك من ظروف، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: 10]؛ فهو تصوير للحالة الّتي كانت عليها منَ الحزن لفراق ابنها، وأمَّا المستقبل فقد اطمأنّت إليه؛ ثقةً باللّه ﷻ، فلم يبق مسوّغٌ للخوف.

بلاغة الجمع بين قرّة العين، ونفي الحزن:

الجمع بينهما جمعٌ بين جَلْب (المَنفعة)، ودَرء (المَفسدة)

جُمِعَ بين قُرّة العين ونفي الحزن في قوله تعالى: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، مع أنّهما على طرفي نقيض؛ لأنّ أحدهما يستلزم الآخر، وقد أجاب على ذلك ابن عرفة معترضًا، فقال: "لا، بلِ الأوّل: سببٌ يقتضي دوامَ قُرور العين، والثّاني: نفيٌ يقتضي دوامَ نفي الحزن"[1].

دلالة عطف التّذكير بحادثة قتل النّفس:

النّجاة منَ المصيبة وتبعاتها نعمةٌ تستحقّ التّنويه بها

عُطِفت جملة: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ على ما سبق منَ النّعم المذكورة، وإن كان ظاهرها أنّها لا تعدّ في هذا الباب؛ لكن ذكرها القرآنُ تذكيرًا له بسبب النّجاة في الدّنيا من قصاص فرعون، وفي الآخرة بمغفرة اللّه له، وذلك أنّه عليه السلام، كان قد وكز قبطيًّا فمات، وهي الواقعة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 15 - 16]، وبعد أن مات القبطيّ حصل لموسى عليه السلام غمٌّ من وجهين ونجّاه اللّه منهما؛ **أحدهما:** من عقاب الدّنيا، وهو اقتصاص فرعون منه، وقد حكى اللّه تعالى حاله فقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18]، **والآخر:** من عقاب اللّه تعالى، حيثُ قتلَه لا بأمر اللّه تعالى، فنجّاه اللّه تعالى منَ الغمَّين؛ أمَّا مِن

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 144.

فرعون فحين هاجر إلى مدين، وأمَّا مِن عقاب الآخرة؛ فلأنّه ﷺ غفر له ذلك[1].

سرّ التّعبير بالقتل دون الوكز أو الضّرب:

التّعبير بالقتل أقوى، لقوّة ظهور مِنَّة الإنجاء فيه

عبّر النّظمُ القرآنيّ بالقتل دون الوكز أو الضّرب، مع أنّ الّذي حصل منه وكزٌ؛ اعتبارًا بما آل إليه أمرُ الرّجل، حيثُ مات بعد أن وكزَه، ولأجل إبراز تمامِ المِنّة؛ فلأن تكون المِنّة في إنقاذه من مغبّة القتل، أعظمَ من أن تكون في الوكز.

دلالة إسناد ﴿وَقَتَلْتَ﴾ إلى تاء المخاطَب:

تقريره بالقتل؛ لإبراز فضل الله عليه بالمغفرة

أسند القرآنُ الكريم القتلَ إلى موسى ﷺ بتاء الخطاب، في قوله: ﴿وَقَتَلْتَ﴾؛ لأنّ وكز موسى له كان سببًا في قتله، لا سيّما وأنّ موسى ﷺ أُعطيَ قوّةً تفوق قوّة عددٍ منَ الرّجال، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: 26]؛ فالوكزُ من موسى مع قوّته يساوي الضّرب من غيره، ولأنّ فيه تذكيرَهُ بما وقع منه؛ ليستحضر مِنّة الله عليه بإنجائه مِن مغبَّتها، وقد كانت فِعْلَة قتلِ القبطيّ حاضرةً في ذاكرة فرعون، ولذا ذَكَّره بها بعدَ رجوعه ﷺ إليه مُرسلًا من ربّه، طالبًا بني إسرائيل، فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشّعراء: 18 - 19].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿نَفْسًا﴾:

تبشيع جريمة القتل من حيثُ هي، بلا تفريق بين نوع القتيل أو صفته

عبّر القرآنُ الكريم بلفظ ﴿نَفْسًا﴾ دون (رجلًا) تبشيعًا للقتل نفسه، وبيانًا بأنّه المقصود بالذّات، بلا فرقٍ بين أن تكون هذه النّفس رجلًا أو امرأةً، كبيرًا أو صغيرًا، قريبًا أو بعيدًا؛ ولأنّ القتل يعني انقطاعَ النّفس؛ فبقتل الإنسان يزول عنه الوصف الّذي به حياة الإنسان.

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 49.

دلالة التّنكير في ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾:

التّهويل والتّفظيع، يلائمان سياق النّكرة

نَكَّر القرآن الكريم لفظ ﴿نَفْسًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾؛ لغرض تهويل أمرِ قتل النّفس، التي أكَّد اللّهُ تعالى على تحريم قتلها إلَّا بالحَقّ، وتفظيعِ حال مَن يقوم بذلك هادمًا بنيان الرّب، الّذي خلقه ﷻ لعبادته ولعمارة الأرض.

سِرّ تقديم ذِكْر قتلِ النّفس على الإنجاء:

تقديمُ ذِكْرِ القتل على الإنجاء مِنَ الغَمّ، تعظيمٌ للمِنّة العليّة

قُدِّم ذِكْرُ قتلِ النّفس على الإنجاء في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾؛ لكونه من جملة الوقائع المقصودة، إن لم يكن أهمّها، فقد أنجاه اللّهُ تعالى مِن غمّ الدّنيا بإنقاذه من فرعون، ومن غَمّ الآخرة بغفران الله له ما وقع منه على سبيل الخطأ، فكان في تقديم ذِكر القتل على الإنجاء منَ الغَمّ، تعظيمٌ للمِنّة[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾:

الإفصاح عن كلامٍ محذوفٍ يُفهَم مِنَ السّياق، مفيدٌ في البيان

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفاء في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾؛ لأنّها منبئةٌ عن محذوفٍ يُفهم من سياق القرآن، باستنباط العقل له، وهذا أمرٌ ملحوظٌ في القصص القرآنيّ والتّقدير: (وقتلتَ نفسًا ففزِعتَ وغُمِمتَ؛ فنجّيناك).

دلالة التّعبير بنون العظمة في: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾:

إنجاء الله تعالى حصانةٌ ومَنَعَة على المدى

أُسنِد الفعلُ ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾ إلى ضمير العَظَمة؛ تنبيهًا على عَظَمة ذلك الإنجاء، وعلى هول الموقف الّذي كان منه تنجيتُه ﷻ؛ "ولتَقْوِيَة قَلْبِه عِنْدَ مُلاقاةِ ما سَيَقَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، مَعَ فِرْعَوْنَ وبَنِي إِسْرائِيلَ"[2].

دلالة كاف الخطاب في ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾:

إبرازُ تمامِ المِنّة على موسى ﷺ، مخاطبةٌ له ليتذكّر

دلّت كافُ الخطاب في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾ على إبراز تمام المِنّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 220.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 433.

منَ اللّه على موسى ﷺ، حيثُ نجّاه "مِنْ عُقوبَةٍ لا يَنْجو مِنْ مِثْلِها مِثْلُهُ"[1]؛ لأنّ قتل القبطيّ يقتضي القصاصَ؛ فنجاَّه اللّهُ مِن ذلك.

دلالة ﴿مِنَ﴾:

لطفُ الله مُنْجٍ من كلّ أنواع الغَمّ وأحواله

عبّر بـ ﴿مِنَ﴾ الابتدائيّة في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، وهو معناها الّذي لا يكاد يفارقها؛ للدّلالة على أنّ اللّه ﷻ نجّى موسى ﷺ، من مبدأ ما يُقال له (غمّ)، سواءٌ كان قليلًا أو كثيرًا، في الظّاهر أو في الباطن.

سِرّ التّعبير بالغَمّ عنِ الحزن، في السّياق:

بيانُ شِدّة انقباضِ قلب موسى ﷺ؛ لهول ما اقترف

عبّر بـ ﴿ٱلْغَمِّ﴾ عن الحُزن في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾؛ لبيان ما أصابه ﷺ من انقباض قلبه[2]، لما جرى منه ممَّا لم يكن يريده، وهو قتلُ القبطيّ؛ ولصعوبته على النّفس لتَعلُّقِه بالحال والاستقبال، فيظلّ الإنسانُ المغموم على هذه الحالة إلى أن تُزال أسبابُه، كما فعل اللّهُ تعالى مع موسى ﷺ، فأزال أسبابَه في الدّنيا بخروجه إلى مدين، وفي الآخرة بمغفرة ذنبه، بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: 16]؛ بخلاف الحُزن فإنّه يتعلّق بالماضي.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْغَمِّ﴾:

مَن أحاطه اللهُ بحفظه، نجّاه مِن كلّ غمٍّ خاصٍّ أو عامّ

(أل) في ﴿ٱلْغَمِّ﴾ للعهد، والمراد: ما أصابه منَ الغمّ بعدما قتل القبطيّ، دونَ أن يقصد إلى ذلك، فقد نجّاه اللّهُ تعالى من انتقام فرعون، والاقتصاص منه، ويجوز أن تكون (أل) للجنس، والمراد: نجاتُه من كلّ أنواع الغُموم، في كلّ أحواله، وهذا ما يتناسب مع سيَّاق الامتنان على موسى ﷺ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 220.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 266.

سِرُّ ذِكْر الفتنة بعد التّنجية منَ الغمّ:

اختصار جميعِ المِحن التّي مرّت بموسى عليه السلام في لفظ (وفَتَنّاكَ)

ذكر القرآنُ الكريم الفتنةَ في قوله: ﴿وَفَتَنّٰكَ فُتُونًا﴾، بعد التّنجية في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾؛ تمحيصًا لمعنى الإنجاء المذكور، وأنّه كان تخليصًا تامًّا مِن كلّ خطرٍ مُحدقٍ به، مِن قِبَل فرعونَ بعدَ قتلِ القبطيّ، فمعنى قوله: ﴿وَفَتَنّٰكَ فُتُونًا﴾ خلّصناكَ تخليصًا، من قولهم: فتنتُ الذّهبَ منَ الفضّة، إذا أردتَ تخليصَه[1]، ويمكن أن يكون المرادُ لفتَ موسى عليه السلام إلى مجموع ما أنجاه اللّهُ من مِحنٍ، فجمَعَها في هذا اللّفظ بدلَ تعديدِها وتكريرها، فيكون المعنى: (فتنّاكَ ضروبًا منَ الفتن).

وسأل سعيدُ بن جُبير ابنَ عبّاس رضي الله عنهما، فقال: "خلّصناك مِن محنةٍ بعد محنة؛ وُلِدَ في عامٍ كان يُقتل فيه الولدان، فهذه فتنةٌ يا ابن جُبير، وألقتْهُ أُمُّه في البحرِ، وهَمَّ فرعونُ بقتله، وقتلَ قبطيًّا، وأَجّرَ نفسَه عشرَ سنين، وضَلّ الطّريق، وتفرّقت غنمُهُ في ليلةٍ مظلمةٍ، وكان يقول - ابن عبّاس - عند كلّ واحدةٍ: فهذه فتنةٌ يا ابن جُبير"[2].

دلالة عطف ﴿وَفَتَنّٰكَ فُتُونًا﴾:

على قَدْر البلاء تكون المثوبة، وعلى قَدْر المَشقّة يكون الأجر

عطف القرآنُ الكريم قولَه: ﴿وَفَتَنّٰكَ فُتُونًا﴾، على قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، في سياق مِنن اللّه على موسى؛ لأنّه لمّا كانت شِدّةُ المِحن وتَحَمُّلُها والرّضا بها توجِب كثرةَ الثّواب، عدّها القرآنُ الكريم من جملة النّعم، وهذا ما كان من موسى عليه السلام في تحمُّله لهذه المشاقّ، وصبرِه عليها.

سِرّ التّعبير بالفتنة دون غيرها:

لفظ الفتنة جامعٌ لكلّ بلاءٍ نازل، وكلّ اختبارٍ حاصل

أوثِرَ التّعبير بلفظ الفتنة دون غيره؛ لأنّه منَ الألفاظ الجامعة التي يُغني إطلاقُها عنِ العديد منَ الألفاظ في باب المحنة؛ حيثُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 45، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 64.

أُطلقت على كلّ ما يَشُقّ على الإنسان، وكلُّ ما يَبْتلي اللّهُ به عبادَه فتنة؛ لأنّها تُستعمَل في الخير والشّرّ، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]"[1]، وحياةُ الأنبياء عليهم السلام تدور بينَ الشّدّة والرّخاء، وبجانب هذه الدّلالة الجامعة، فإنّ لفظ الفتنة، يُشير إلى شِدّة المحنة، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3]، فيُشعِر التّعبيرُ بها بعِظَم المِنّة في الإنجاء منها، وبكثرة الثّوابِ لمَن وقع فيها[2].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿فُتُونًا﴾:

قوله تعالى: ﴿فُتُونًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لعامله ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾، والتّنوين فيه للتّنكير الدَّالّ على التّعظيم، أي: فُتونًا قويًّا عَظيمًا[3]، ويجوز أن يكون جمعًا على أنّه جمعُ فتنةٍ أو فِتَنٍ، على ترك الاعتداد بالتّاء، والمراد: أنواعٌ منَ الابتلاء؛ أي: خلّصناكَ مِن محنة بعد محنة؛ حيثُ وُلِدت في عام كان يُقْتَل فيه الولدان، وألقتْكَ أمُّكَ في البحر، وهمّ فرعونُ بقتلكَ، وقتلتَ قِبطيًّا...، إلى غير ذلك ممَّا تعرّض له موسى عليه السلام، وخلّصه اللّهُ منه؛ تأهيلًا لنُبوّته عليه السلام[4].

عـبَّر بالمصدر للتّأكيد، وبالتّنكير للتّعظيم

دلالة فنّ الإدماج، والجناس الاشتقاقيّ:

ذِكْرُ الفُتونِ بَيْنَ تِعْدادِ المِنَنِ - في الآية الكريمة - إدْماجٌ لِلْإعْلام بِأَنَّ اللّه لَم يُهْمِلْ دَمَ القِبْطيِّ الَّذي قَتَلَهُ موسَى، فإنَّهُ نَفْسٌ مَعْصومَةُ الدَّم، إذْ لَم يَحْصُلْ منه ما يوجِبُ قَتْلَهُ؛ لِأَنَّهُم لَم تَرِدْ إِلَيْهِم دَعْوَةٌ إِلَهيَّةٌ حينَئِذٍ، وحينَ أَنْجَى اللّه موسَى مِنَ المُؤاخَذَةِ بِدَمِه في شَرْعِ فِرْعَوْنَ، ابتلى موسَى بالخوف والغُرْبَةِ عِتابًا لَهُ على إِقْدامِه على قَتْلِ

ذِكْرُ الفتون بين تعداد النّعم تذكيرٌ بالألطاف في السرّاء والضّرّاء

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 64.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 220.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 54.

النَّفْسِ، كما قالَ في الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القَصَص: 15 - 16][1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ جناسٌ اشتقاقيّ.

دلالة التّعبير بالفاء، في قوله: ﴿فَلَبِثْتَ﴾:

التّذكير بمشاقّ اللُّبث في مدين، لولا عونُ الله وحفظُه

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالفاء دون غيرها في قوله: ﴿فَلَبِثْتَ﴾؛ للدّلالة على كون هذا اللّبث في أهل مدين، مترتّبٌ على ما سبقه، من إنجاء الله له، وتخليصه من محنة قتل القبطيّ[2]، فذِكْرُ "قولِه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، بعد قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾، كالدّلالة على أنّ لُبثه في مدين منَ الفتون، وكذلك كان، فإنّه عليه السلام تحمّل بسبب الفقر والغربة محنًا كثيرة، واحتاج إلى أن آجرَ نفسَه"[3]، وفي الكَلام حَذْفٌ، والتَّقْديرُ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ (فخَرَجْتَ خائِفًا إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ) ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾[4].

سِرّ التّعبير باللّبث دونَ المُكث:

اللّبث إقامةٌ طويلة وملازمةٌ للمكان، كان فيها لموسى الامتحان

عبّر باللّبث في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾؛ لما فيه من معنى طولِ الملازمة للمكان، وعدمِ التّنقل عنه، يقال: لَبِثَ بالمكان، أي: أقام به ملازمًا له[5]، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14]، أمَّا المُكْث: فهو ثباتٌ مع ترقّبٍ وانتظار[6]، فليس فيه معنى الإقامة الطّويلة المطمئنّة، كما في لفظ (لبث)؛ ويؤكّد ذلك موقفُ الهُدْهُدِ مع سليمان عليه السلام لَمَّا غاب عنه مدّةً يسيرة، عبّر القرآنُ عن ذلك، بقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: 22]؛ لذلك كان التّعبير مع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 333.
(5) الرّاغب، المفردات: (لبث).
(6) الرّاغب، المفردات: (مكث).

موسى ﷺ باللّبث هو المناسب؛ حيثُ عاش في مَدْيَن عشرَ سنوات، كما يدلّ عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القصص: 27]، وبعد مضي الأجل تزوّجَ ابنةَ هذا الرّجلِ الصَّالح، الّذي قيل: إنّه شعيبٌ ﷺ، وصار له بمدين أهلٌ وإقامة.

دلالة إسناد (لَبِثَ) إلى تاء الخطاب:

اختيار موسى مدّة اللّبث في مدين، تأهيلٌ له على التّحمّل

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بقوله: ﴿فَلَبِثۡتَ﴾ دون (أَلْبَثْناكَ)؛ للإشارة إلى أنّ مدّة اللّبث كانت باختياره ﷺ، بعد محاورته ومشاورته مع الشّيخ الصَّالح، وتعاهده معه أن يبقى عندَه ثماني حِجَجٍ أو عشرًا، كمهرٍ لزواجه بابنته، ولذلك لم يذكر اللّبث نفسه، على أنّه من جملة النّعم البارزة الّتي امتنّ اللّهُ تعالى عليه بها، وإن كان كذلك، لكنّه لا يَرقَى إلى مصافِّ نعمةِ الإنجاء منَ الغرق في اليمّ، وإلقاءِ محبّةٍ في قلب أعدى أعدائه، ورعايةِ تربيته، ثمّ الإنجاء من مغبَّة قتل القبطيّ، ونحوِ ذاك، وفيه إشارةٌ إلى تأهيل موسى ﷺ لأمر النّبوّة، وذلك بتدريبه على تحمّل المشاقّ والتّكليفات في مدّة الإقامة مع الرّجل الصَّالح.

سِرّ التّعبير بـ ﴿سِنِينَ﴾، دون (أعوام):

دلّت هذه الفترة المستوفاة، على قسوة ما طرأ لموسى من أزمات

في التّعبير بلفظ ﴿سِنِينَ﴾ دون أعوام في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ﴾؛ إيماءٌ إلى ما لقيَه موسى ﷺ من شِدّةٍ وحاجةٍ، طوالَ هذه الفترة الّتي عمل فيها أجيرًا؛ كي يَسدَّ حاجتَه وحاجةَ أهله، وممَّا يؤكّد ذلك استعمالُ القرآن الكريم التّعبير بـ (السّنة) في الدّلالة على الشّدّة والحاجة والصّعوبة في عددٍ منَ الآيات، في مقابل ذكر لفظ (العام) الذي يدلّ على الرّخاء والسّعة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ

لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 47 - 49].

ولمَّا كانت هذه الفترة من حياة موسى ﷺ قبل اصطفائه للرّسالة، فأحوالُه فيها كانت توصف بالشّدة مقارنةً بما بعدَها من أمر الاصطفاء والتّكليف.

دلالة التّعبير بالظّرفية ﴿فِي﴾:

انخراط موسى ﷺ مع أهل مدين في حياتهم، ضرورةٌ لعيشه

الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ مرادٌ بها المكان، وعليه: ففي الجملة مجاز مرسل علاقته الحالّية، حيثُ أَطْلَقَ الحالَّ وأراد المَحلّ، وفيه إشارةٌ إلى عيش موسى ﷺ وسط القوم وتعامله معهم، وتحمّله لأثر الغُربة الّتي كانت تظهر عليه في المجتمع، وكلّ ذلك من باب التّأهيل والإعداد لأعباء الرّسالة.

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿أَهۡلِ﴾ دون (أصحاب):

أهل مدين هم ساكنوها كابرًا عن كابر، وكلّهم أهلون من سلالة مَدْيَن

جاء التّعبير القرآنيّ بقوله تعالى: ﴿أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ دونَ (أَصْحابِ مَدْيَنَ)، نسبةً إليه؛ فهو اسمُ أحدِ أبناء إبراهيم ﷺ، وقد سكنت ذريّتُه في مواطنَ تسمّى الأيكة، على شاطىء البحر الأحمر، جنوب عقبة أَيْلَة، وغلب اسمُ القبيلة على الأرض، وصار علمًا للمكان، فمن ثمّ أُضيف إليه ﴿أَهۡلِ﴾[1].

سِرّ التّعبير بـ﴿أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾:

التّعريض بأهل مدين وطباعهم السّيئة، ملمحٌ مهمّ في هذه القصّة

عبَّر بـ ﴿أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ دون (قوم شعيب)، إشارةً إلى "جميع ما قاساه ﷺ، من أنواع المتاعب – من أهل مدين الّذين أتعبوا نبيَّهم شعيبًا ﷺ، فكيف بموسى الغريب – في تضاعيف مدّة اللّبث، وهي فيما قيل: عشر سنين"[2]، وقيل: أكثرُ من ذلك، ففيه تعريضٌ بهم، ودلالةٌ على صبر موسى، وتحمّله طباعهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 221.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 16، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 506.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ثُمَّ﴾، دون الفاء:

كـانـت الـرّحـلـة إلـــى المـنـاجـاة شاقّة، فناسبها سياق التّرتيب والتّراخي

عبّر القرآن الكريم بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالِّ على التّراخي، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ﴾؛ إيذانًا بأنّ مجيئه ﷺ، كان بعد اللَّتيَّا والّتي؛ أي "بعد الكثير من الكلام والجدل"، وما أصابه من ضلال الطّريق، وتفرُّق الغنم في اللّيلة المظلمة الشَّاتية وغير ذلك[1].

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿جِئۡتَ﴾:

المَجيء يكون عن قصدٍ في مباشرة الفعل وتنفيذه

عبّر بالمَجيء دونَ الحضور، في قوله: ﴿جِئۡتَ﴾؛ لأنّ لفظ المَجيء يحمل معنى القصد[2]، فقد جاء موسى ﷺ، أو جيء به لأمرٍ جَللٍ، وهو تلقّي الرّسالة، ولأنّ المَجيء فيه مشقّةٌ وصعوبة، وهذا ما حدث لموسى ﷺ في أثناء طريق العودة من مَدْيَن إلى مصر، منَ الوحدة والغربة، وطولِ الطّريق، وتفرّقِ الغنم، ونحوِ ذلك، بخلاف الحضور، فهو من لوازم المَجيء، ولا يُعبّر به إلَّا في موضع المشاهدة والمعاينة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النّساء: 18].

دلالة تعدّي فعلِ المَجيء بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

التّعدّي بحرف الاستعلاء المجازيّ، دالٌّ على التّمكّن في البلاغ

عُدّيَ الفعل ﴿جِئۡتَ﴾ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾، الدَّالّ على الاستعلاء المجازيّ بمعنى التّمكّن، حيثُ جعلَ مجيئَه في الوقت الصَّالح للخير، بمنزلة المُسْتَعْلي على ذلك الوقت المتمكّن منه[3].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾:

مجيئه ﷺ لميقاتٍ مقدورٍ؛ لتحقيق أمرٍ مقصود

دلّ قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾، أنّ موسى ﷺ قد جيء به في هذا الوقت وهذا المكان بإرادة الله تعالى وتدبيره، قصدًا لتلقّي النّبوّة، فمعنى قولِه: ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾، أي: بميقاتٍ محدودٍ للنّبوّة الّتي قد أرادها

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 16، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 506.
(2) الرَّاغب، المفردات: (جاء).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 222.

اللّه لموسى[1]، فكان مجيئُه ﷺ لميقاتٍ مقدورٍ؛ لتحقيق أمرٍ مقصود، وفيه إشارةٌ إلى أنّ جميع حركات العبد وسعيه، مقدّرَةٌ منَ اللّه.

دلالة ختمِ الآية بمجيء موسى على قدر:

عناية الله تعالى محيطةٌ بموسى في كـلّ أحـواله ومآله

دلّ ختام الآية بقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، على أنّ ما حصل لموسى منَ الأحوال، كان مُقدَّرًا منَ اللّه تقديرًا مُحْكمًا، بحيثُ تكون أعمالُه وأحواله قد قدّرَها اللّهُ وحدّدها تحديدًا منظّمًا؛ لأجل اصطفائه وما أراد اللّهُ مِن إرساله، فالقَدَر هنا كنايةٌ عنِ العناية، بتدبير إجراء أحواله على ما يسفر عن عاقبة الخير، فهذا تقديرٌ خاصٌّ، وهو العناية بتدرّج أحوالِه إلى أن بَلَغ الموضعَ الّذي كلّمه اللّه منه.

وليس المرادُ القدرَ العامَّ الّذي قدّره اللّهُ لتكوين جميع الكائنات، فإنّ ذلك لا يُشعر بمزيَّةٍ لموسى ﷺ[2]، ولأجل هذه العناية وذلك التّوفيق الإلهيّ، عُدَّ هذا المَجيء من موسى ﷺ ضمن النِّعَم؛ "لأنّه لولا توفيقُه له، لما تهيّأ شيءٌ مِن ذلك"[3]، ويجوز أن يكون المرادُ تقديرَ اللّه لزمن النّبوّة، ويظهر ذلك في تقدير زمن خروجه من مصر، ثمّ ذهابه إلى مدين وإقامته فيها، إلى أن وصل سنّ الأربعين[4].

دلالة تنوين لفظ ﴿قَدَرٍ﴾:

التّنكير والتّنوين في لفظ ﴿قَدَرٍ﴾؛ للدّلالة على عِظَم الأمر الّذي جاء لأجله موسى ﷺ، وهو النّبوّة.

دلالة تقديم ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ على النّداء:

الاهـتـمـام والاخـتـصـاص مَـلـمـحان لِعِلّة التّقديم

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾، على جملة النّداء في قوله:

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 45، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 222.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 50.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 15/ 55.

﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ للاهتمام والاختصاص، وللدّلالة على أنّ كلّ ما حصل لموسى، هو بتقدير الله.

دلالة جملة النّداء في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

نداءُ الله لموسى مُناطٌ بالتّشريف والتّكريم

النّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريفٌ له عليه السلام، وتنبيهٌ على انتهاء هذا المشهد في قصّة موسى عليه السلام، وهو تفصيلٌ للمرّة الأخرى الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧﴾، وإعلانٌ عن بَدء كلّ مظاهر التّكريم بتكليفه بأمر النّبوّة.

التّشابه اللّفظيّ بين سورة طه والقصص:

تشابه قوله تعالى في سورة طه: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾، مع قوله تعالى في سورة القصص: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [القصص: 12 - 13].

ومواطن التّشابه في السّورتين: توجيه السّؤال التّقريريّ على لسان أُخت موسى عليه السلام؛ ففي سورة طه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾، وأمّا في سورة القصص: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ [القصص: 12].

ورود ﴿أَهۡلِ بَيۡتٖ﴾ في القصص، ولم يرد هنا:

فموضع سورة طه، لم يرد فيه قوله تعالى: ﴿أَهۡلِ بَيۡتٖ﴾ [القصص: 12]، وورد في سورة القصص مع الاتفاق على فعل الكفالة، وسببُ ذلك أنّ سياق سورة طه مبنيّ على امتنان الله على موسى عليه السلام وتذكيره بذلك؛ فبني الأمرُ على الاختصار؛ بخلاف موضع القصص، فإنّه مبنيٌّ على التّفصيل والبيان؛ لأنّ السّياق فيها مبنيٌّ على مخاطبة

آل فرعون، فيمَن يُرضع موسى، وهذا يقتضي الإعلامَ بأصالة وكرم وعلوّ هذا البيت؛ حتّى يتناسب مع مبعوث آل فرعون، صاحبِ السّيادة والقيادة في مصر.

اتّفاق الموضعين على استعمال لفظ الكفالة

وممَّا يذكر في سِرّ الاتّفاق على الكفالة في الموضعين، دون التّعبير بالرّضاع مثلًا، كأن يكون التّعبير: (يُرْضِعونَهُ)؛ لأنّ التّعبير بالكفالة هو الّذي يؤدّي المعنى المراد، في تحقيق وعد الله لأمّ موسى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: 7]، بخلاف الرّضاع، فلا يؤدّي هذا المقصود.

التّعبير بـ ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾ هنا دون سورة القصص:

ففي سورة طه عبّر بالمشي في قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾، دون التّصريح به في سورة القصص؛ بل أشار إليه بقوله تعالى: ﴿قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: 11]، والقصّ: تتبّع الأثر، ويلزم منه المَشيُ، وهذا هو المناسب لسياق سورة القصص، المبنيّ على الخوف من بطش فرعون؛ أمَّا موضع طه: فكان من باب التّذكير لموسى ﷺ بامتنان الله عليه؛ ومقامُ المِنّة يناسبه التّصريح.

الفرق بين ﴿أُخْتُكَ﴾، و﴿لِأُخْتِهِۦ﴾:

ففي سورة طه عبّر بقوله: ﴿أُخْتُكَ﴾ بمقام الخطاب، أمَّا في سورة القصص فجاء بصورة الغيبة بقوله: ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ [القصص: 11]، وكلٌّ منهما مناسبٌ لسياق سورته؛ فمقامُ الامتنان في سورة طه يناسبه الخطاب، ومقامُ الخوف والحَذر في سورة القصص، يناسبه الغيبة.

الفرق بين ﴿فَتَقُولُ﴾، و﴿فَقَالَتْ﴾:

ففي سورة طه جاء التّعبير بالمضارع: ﴿فَتَقُولُ﴾، أمَّا في سورة القصص فعبّر بالماضي: ﴿فَقَالَتْ﴾ [القصص: 12]؛ والتّعبير بالمضارع جاء مناسبًا لسياق سورة طه، أمَّا التّعبير بالماضي في سورة القصص؛ فللدّلالة على تحقيق وعدِ الله تعالى لأمّ موسى.

زيادة ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12] في سورة القصص:

اقتصر كلامُ أُخت موسى في سورة طه على عبارة: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾، وزيد في سورة القصص قولها: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]؛ وفيه ما يُعرف ببلاغة التّوجيه، وهوَ: ما يحْتَمِلَ مَعْنَيَيْنِ، ويُؤْتَى به عِنْدَ فِطْنَةِ المُخاطَبِ، وذلك أنّها لما قالت: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]، احتمل في الضّمير أَنْ يَكونَ لِموسَى عليه السلام، وأَنْ يَكونَ لِفِرْعَوْنَ، قال ابْنُ جُرَيْجٍ: وبِهَذا تَخَلَّصَتْ أُخْتُ موسَى مِنْ قَوْلِهم: (إِنَّكِ عَرَفْتِه)، فقالَتْ: أَرَدْتُ ناصِحونَ لِلْمَلِكِ، واعْتُرِضَ عليْه بِأَنَّ هَذا في لُغَةِ العَرَبِ لا في كلامها المحكيِّ[1]، قال الآلوسيّ: "واحتمال الضّمير لأمرين، ممَّا لا تختصّ به اللّغة العربيّة، بل يكون في جميع اللّغات، على أنّ الفراعنة من بقايا العمالقة، وكانوا يتكلّمون بالعربيّة، فلعلّها كلّمت بلسانهم"[2].

فائدة اتّفاق التّعليل في السّورتين:

اتّفق في السّورتين تعليلُ رجوع موسى إلى أُمّه وردِّه إليها، بقوله سبحانه: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ [طه: 40، القصص: 13]؛ وذلك لأنّ هذا التّعبير أبلغُ في الإعلان عنِ الرّضا والسّرور والسّعادة التي أكرم اللّهُ بها أمّ موسى عليه السلام، وهو أسلوبٌ تستعمله العرب في الدّلالة على ذلك.

اختلاف توجيه الخطاب بينَ الغائب والمُخاطب:

ففي سورة طه قال: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾، بأسلوب الخطاب؛ اتّساقًا مع السّياق سباقًا ولحاقًا، فقد كان خطابًا له عليه السلام، وباستخدام لفظ (الرّجوع) وهو أخفّ من لفظ (الرّدّ) وألطف، وأنسب للخطاب الرّقيق مع نبيّ الله موسى من قِبَل ربه، وأوفق للدّلالة على المِنَّة والنّعمة عليه، أمَّا في سورة القصص فقال: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: 13]، بأسلوب الغائب، إذ لم يكن السّياق خطابًا معه عليه السلام، بل كان إخبارًا عمَّا حدث له، ووقع من إلقائه في اليمّ، ثمّ التقاطه من قِبَل آل فرعون، ثمّ امتناعه عنِ الرّضاع من غير أمّه... إلخ، إلى أن قال سبحانه: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: 13].

(1) الزَّركشيّ، البرهان: 2/ 314.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 260.

التّفريق بينَ الإرجاع والرّدّ بحسب السّياق في السّورتين:

فورودُ كلِّ لفظٍ في سياقه؛ لكونه الأنسب للسّياق؛ فالتّعبير بالإرجاع في سورة طه فيه إشفاقٌ وامتنان، وهو الغرضُ المعهود في سياق السّورة، أمَّا في سورة القصص: فقد أُوثِر التّعبير بالرّدّ؛ لأنّ هذه الآية يتقدّمها حديثٌ وتصويرٌ للخوف على نبيّ اللّه موسى من بطش فرعون، حتّى أنّ القرآن الكريم وصف حالةَ أُمّه بما كانت عليه من الخوف والهلع، بقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: 13]، وأيضًا فإنّ ما في سورة طه، جاء في سياق الامتنان على موسى ﷺ، أمَّا ما في سورة القصص فجاء في سياق الامتنان على أُمّه، وهو بالنّسبة له كان في حُكم المفقود، فكان التّعبيرُ بالرّد أنسب، ولتحقيق غرضِ إسعادها أوفى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكفالة والرّعاية:

الكفالة: هي الضّمان، وقيل: الكفالَة تكون بِالنَّفسِ، والضَّمان يكون بِالمالِ[1]، أمَّا الرّعاية: فهي المُراقَبَةُ والحِفْظُ[2]، وبهذا تكون الرّعاية أعمّ منَ الكفالة.

الرّعاية المراقبة والحِفظ، وهي أعمّ منَ الكفالة

الغمّ والهمّ:

الهمُّ: هوَ الفِكر في إزالَة المَكْروه، واجتلاب المحبوب، ولَيْسَ هوَ منَ الغمِّ في شَيْء، أَلا ترى أَنَّك تَقول لصاحبك: أهتمُّ بحاجتي، ولا يَصحُّ أَن تَقول: أغتمّ بها، والغَمُّ: معنًى ينقبض القلب مَعَه، ويكون لوُقوع ضَرَرٍ قد كانَ، أَو تَوقّعُ ضَرَرٍ يكون، أَو يتوهّمه[3].

الغـمُّ انقباضُ القـلـب مـنَ الحُزن، والهـمُّ انشغالُ الفكر بـمـكـروهٍ أو محبوب

والتّعبير بالغمّ هنا أنسب، لما أصابه ﷺ منِ انقباض قلبه، ولما

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 207.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رعى).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 266.

جرى منه ممَّا لم يكن يريده، وهو قتل القبطيّ، ولصعوبته على النّفس[1]، وممَّا يؤكّد ذلك، أنّ الغمّ أشدّ منَ الهمّ في البنية اللّغويّة لكلمة الغَمّ؛ فحرفُ الغين له صفاتٌ تدلّل على شِدّته، منها صفة الاستعلاء والشّدّة، بخلاف الهَمّ، فصفات حروفه لا يوجد فيها ذلك.

الفتنة والابتلاء:

أصل الفتنة: من عرض الذَّهَب على النَّار لتبيّن صَلاحِه مِن فساده، ومِنْه قَوْله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذّاريات: 13]، وتكون الفتنة في الخير والشّر[2]، وهي أشدّ وأعمّ وأعمق تعبيرًا منَ الابتلاء والاختبار، لما فيها من معنى التّمحيص، والابتلاء: هو الاختبار والامتحان، ولا يكون إلَّا بتحميل المكاره والمشاقّ[3]، ويدلّ على استعماله في المعنيين قولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35].

الفتنة أعمّ وأعمق تعبيرًا من الابتلاء والاختبار

والتّعبير بالفتنة في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾، هو الأنسب؛ لما يفيده من معنى التّمحيص والتّخليص، بالتّشديد في المحن، ثمّ الإنجاء منها؛ ليشتدّ عودُ المُنعَم عليه، ويصيرَ صلبًا في تحمّل التّكاليف وأعباء الرّسالة.

اللّبث والمُكث والإقامة:

اللّبث طولُ الملازمة للمكان، وعدمُ التّنقّل عنه، يقال: لَبِثَ بالمكان، أي: أقام به ملازمًا له[4]، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14].

التّعبير باللّبث، أخصّ دلالةً على الاستقرار، مع طول الزّمن، وبه أوثر التّعبير

والمُكث ثباتٌ مع ترقّبٍ وانتظار[5]، فليس فيه معنى الإقامة الطّويلة المُطمئنّة، كما في لفظ (لبث)، ولذا فالتّعبير بـ (اللّبث)

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 217.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 216.
(4) الرّاغب، المفردات: (لبث).
(5) الرّاغب، المفردات: (مكث).

أنسب؛ لأنّه ﷺ قد عاش في مدين عشرَ سنوات أو أكثر، كما يدلّ عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القصص: 27].

أمَّا لفظ الإقامة فهو أعمّ من كليهما؛ إذ إنّه لا يعبّر عن حدود الزّمن، فيشمل كثيرَ الزّمنِ وقليلَه، وبالتَّالي فإنّه لا يدلّ على خصوص ما دلّ عليه لفظ (لبث).

السّنين والأعوام:

لفظ (سنة) يستعمل في معنى الشّدة والجَدب، ولفظ (عام) عكسه

يذكر العلماء أنّ الغالب في استعمال القرآن الكريم للفظ (سنة) هو في الحَول الّذي فيه شِدّةٌ وجَدب، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]، ويُعبّر بالعام عمَّا فيه رخاءٌ وخِصب، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49] وبهذا تظهر النّكتةُ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14]، حيثُ عبّر عنِ المستثنى بالعامِ، وعنِ المستثنى منه بالسّنة[1]، وأوثِرَ في الآية التّعبير بالسّنين في قوله: ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾؛ للدّلالة على أنّها كانت سنوات شِدّةٍ وحاجةٍ بالنسبة لموسى ﷺ، فقد كان فيها أجيرًا متحمّلًا المشاقّ.

(1) السُّيوطيُّ، الإتقان: 2/ 368.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»